

البيت الذى لا يتهدم

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

سرنى أن قرأت فى إحدى الجرائد الصباحية تحت عنوان "دعم بناء الأسرة" أن من بين المشروعات التى أوشكت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تفرغ من بحثها فيه هو مشروع قانون يرمى إلى دعم بناء الأسرة والتخفيف من مضار الطلاق .

امتلأت نفسى غبطة لهذا الخبر لسار واستبشرت خيرا بوزارة الشؤون الاجتماعية التى تعطينا فى كل يوم مثلا جديدا على تغفلها فى أحوال المجتمع ، واكتشاف نقط الضعف فيه . ولعمري إن هذه الوزارة الفتية كان لا بد لها من أن توجد منذ عشرات السنين كى تأخذ بيد المجتمع .

كان اهتمام وزارة الشؤون الاجتماعية فى هذا الأمر صدى لصيحات عديدة ليست وليدة اليوم . وقد كانت مقالتي فى العدد قبل الأخير من مجلة "شؤون الاجتماعية" — كماخوا مواطن الداء — تتحدث بوضوح فى مضار تعدد الزوجات وأثره فى هدم الأسرة المصرية وانحلالها ، ومضار ترك أمر الطلاق عندنا مباحا بإباحة مطلقة بلا قيد ولا شرط . وناشدت وزارة الشؤون الاجتماعية أن تعنى بهذا الأمر ، وهما هى تبرهن لنا من جديد على أنها يقظة لا تغفل عن مصالح الشعب .

وموضوعى اليوم الذى عنوانته بعنوان "البيت الذى لا يتهدم" لا يخرج كثيرا عن نطاق موضوعاتى السابقة التى تدور جميعها حول لأسرة المصرية وضرورة السمو بها إلى مصاف أرق الأسر الغربية .

فالبيت الذى لا يتهدم هو البيت الذى قوامه (رجل وامرأة) . والمرأة التى أعنيها هنا هى تلك المرأة لكاملة الأنوثة التى تعرف حق وظيفتها المقدسة فى الحياة ولا تخرج عما سنه الطبيعة لها فتراحم — غير مضطرة — الرجل فى ميادين الأعمال .

والرجل الذى أعنيه هنا أيضا هو ذلك الأسد الغيور الذى يشعرنا دون كلفة أو عناء
باكتال رجولته وقوة شخصيته ، لا ذاك الذى يزاحم المرأة فى أنوثتها وما طبعت عليه من
رقة ونعومة .

ولا ريب أنه لو وجد هذا الرجل ووجدت هذه المرأة ، وعرف كل منهما واجبه
المسؤول عنه أمام الله والوطن ، وعاش كل منهما أميا على هذا الواجب ، شريفا فى أدائه
حريصا على سلامته لمأمكن لأسرتنا المصرية أن تهتدم .

وإذا سلمنا بأن التربية الأولى هى التى يتوقف عليها إنتاج هذا النوع الإنسانى الكامل
لوحدنا أن المرأة هى المسؤولة عن أخلاق أبناء الأمة ، وبين يديها وحدها مصيرها الأدبى
والمادى .

وإن كنا نضع هذا العبء الثقيل على أكتاف المرأة ، فلا ننسى أن نقول بأنه ليست
كل امرأة بالتى يمكننا أن نوليها هذه الثقة العظيمة ونركن إليها ، إنما هذه المرأة هى تلك
التي تكلمت عنها فى أوّل الموضوع ، المرأة المثقفة ، العاقلة التى تعيش فى كنف رجل كذاك
الذى تكلمت عنه فى أوّل الموضوع أيضا . رجل يعرف حقوقه وواجباته نحو أسرته ، فينظر
إلى زوجته نظرة المعلم ، والأب الشفوق ، والأخ ، والصديق . ويهذب ما يحتاج فى أخلاقها
من تهذيب . لا ذاك الذى يشجعها بضعفه على التماهى فى طرقات المحجون والاستهتار ، فيشب
أولادها على غرارها ، متشبعين بمبادئها ، متشبهين بنواحى الضعف فيها .

ولا يمكننا أن نتغاضى عن سوء نشأة أولاد الزوجات المستهترات . فإننا إذا بحثنا عن
أسباب انهيار أخلاق بعض فتياتنا وفتياننا فى مصر ، لرأينا أن السبب فى ذلك إنما يرجع إلى
تلك الحرية الخاطئة التى ينفهمونها بمساعدة أمهاتهم الفضالات مما ترتب عليه اندثار الكثير
من عاداتنا القديمة الفاضلة .

والأدلة على اندثار تلك العادات والأخلاق كثير ، يظهر بعضها جليا فى تلك الأخبار
التي تظالنا على صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية فى مسائل الزواج والطلاق .
فلو أننا تنبها جيدا لتلك الأخبار ، لرأينا فيها ما يدهش ، ولا شأنا من نفوسنا من مثل خبر

طلاق فلانة من زوجها الرابع لاستئناف حياتها الزوجية الجديدة في كنف الخامس ، بنفس السهولة التي تخلع بها المرأة قفاها القديم لاستبداله بأخر جديد . وفلانة هذه مع الأصف ومن يشبهونها ، من طباقتنا الكبيرة المعروفة . وأخشي . انخداع في هذا الأمر ، حب التقليد الذي نراه متفشيا بشكل واضح بين فتياتنا المصريات والخوف من أن يعود علينا هذا التقليد بالعار والانهيار الخلقي .

فلا ينسى أحدنا عمق تلك المهاوى التي تجتازها الفتاة الفقيرة لتعرض في نفسها نزع التقليد العمياء ، ومع ذلك كيف نلومها إذا تشبهت بصاحبها الغنية ، وإن كانت قد دفعت الثمن غاليا ؟ ... أليس الطفل دائما يقتدى بالكبار ؟ ومن على الأرض ينفو لرؤية ما في السماء .

أما من جهة ضعف أخلاق الكثير من شبابنا فليس أدل عليه من تسكعهم طول النهار أمام المقاهي ، وطول الليل أمام الصالات الحفيرة ودور اللهو . وابكاهم على الحمر والمذاذات .

كل تلك أدلة ملموسة على ضعف الأخلاق واندثارها في أغلبية أبناء وبنات الجيل الجديد مما جعل بيتنا المصري لا يستقيم له عماد حتى الآن .

أليست هي الأم المدللة ، الضعيفة الأخلاق هي التي تخرج لنا هؤلاء الحشرات إلى قلب المجتمع ليوثون وطينتنا ، أليست هي الأم التي ترك لها زوجها الحليل على القرب هي التي تشجع ابنتها الغرة على إساءة استعمال حريتها فيما يعين لها من المساوئ متشبهة بها في كل ما تسمع ولا ترى ، وهي التي تقدم لها بطريق مباشر أو غير مباشر السجائر ، وتحثها على الخلاصة ومعاينة الشبان بحجة البحث عن الزوج المنشود ، والفتاة حائرة مضطربة ، تعطي كلا من قلبها جانبا حتى تجد ذلك للبلط الحيالى الذى يمكنه أن يسعد فتاة مثلها لها من التجارب ماله ، ولا حاجة بي إلى القول بأن تلك الفتاة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة تحافظ على كيان أسرتها وتفيد وطنها .

كذلك أليست الأم الجبانة الرعيدة التي تركها زوجها تعيش في محيط جهلها ، دون أى جهد منه في تمية مداركها وتهذيبها ، هي التي تولول وتملأ الدنيا عويلا وصياحا ، ثم تقيم الدنيا وتقعدها عند ما يطالب منها الوطن فاتها الذى تركه في ذمتها طفلا كي يسترده رجلا ؟

هذبوا أخلاق المرأة أولا . عودوها على استغلال حريتها في حدود الكرامة والشرف ، وفيما يعود عليها وعلى وطنها بالرفعة والرق ، دعوها تعيش في محيط من النور يريها حدود وظيفتها الانسانية السامية في الحياة . ثم انتظروا منها رجالا بواسلا يفخر بهم الوطن وفتيات صالحات يسمو بهن المجتمع وتستقيم نواحي الاعوجاج فيه .

ومن أهم واجبات المرأة الكاملة نحو وطنها ، أن تثبت في نفوس النشأ روح الشجاعة الأدبية وحب التضحية في سبيل الوطن ، كي يشبوا شجعانا لا يهوقهم عائق عن أداء واجباتهم . كما يجب عليها أن تسير بكل من الفتى والفتاة إلى الطريق الذي خلق له كل منهما والذي يجب أن يسيرا فيه ليشب كل منهما ملما بحقوقه متشبعا بواجباته .

يجب عليها أن تكون شجاعة في تأدية واجبها نحو أولادها فتبتعد بهم عما يلوث نفوسهم البريئة من مظاهر الحياة الكاذبة ، كما تقتصد في إبداء حنانها لهم ثلثا تعودهم التدلل والخنوع . وهذا أخطر مرض نفسياني يصاب به الأطفال ؛ ولا يمكن لأطفال هذا شأنهم أن يكونوا رجالا كما ينبغي أن يكون عليه الرجال .

وأرجو ألا يكون مفهوما بأني أدعو إلى ضربهم أو إيذائهم ، فإن هذا ولاشت أفظع عاقبة من التدلل ، إذ يخلق منهم رجالا ضعافا جبنا ، يخيفهم القول ، ويهزمهم النعيد ... فنى استطاعة المرأة القوية الروح أن تفيض على أطفالها من روحها قوة وعزما وأن تثبت من مبادئها القويمة ، حب الخير في نفوسهم ، وأن تربيهم بأعمالها وحبها لوطنها وحماسها في سبيل واجبها ما يدعهم يقتدون بها ويتشبهون بوطنيتها وشجاعتها غير جهد منها . أو عناء .

ومن أهم ما يجب عليها الاهتمام به الابتعاد بهم عن قراءة الروايات السقيمة ، وسماع الأغاني "ترخيصة المبتذلة المائعة التي شاعت هذه الأيام والتي تشكر لوزارة الشؤون الاجتماعية العناية بحاربها ، كما تمنعهم منها باتا من مشاهدة ماتنضمه دور للهو والمصالات العامة عندنا في مصر من المخازي والتبث والاستهتار .

فاذا أمكن للمرأة المصرية أن تقوم بهذا الواجب المقدس بدقة وأمانة لارتقى دون شك مستوى أسرتها المصرية ولما تفتت فيها روح الهدم والانحلال .

وإذا كنت قد وجهت معظم حديثي للمرأة ، فإن الرجل وهو محور العائلة هو في الواقع حجر الزاوية في بناء البيت وعليه هايته من التهم ، فكما أن الزوجة مسئولة عن أخلاق أولادها ، فالزوج مسئول عن أخلاق زوجته التي تربي هؤلاء الأولاد .

ومن أول واجباته نحو أسرته ، أن يفهم جيدا مسؤولية الزواج ، فيغير من منهاج حياته القديم حيث كان لا هم له إلا الأكل واللهو والنوم فيهجر داء المقاهى ويحرص على كل دقيقة من وقته فلا يضيعها فى غير موضعها وينظر الى البيت نظرة تنديس واحترام وكأنه اللجنة الموعودة على الأرض. وأن زوجته هى ملاك تلك اللجنة ، فيعطيها كل رعايته واهتمامه يشركها معه فى مطالعاته والجديد من معلوماته ، ويعكف على تلقينها بالعظيم من مبادئه ويقوم نواحى الاعوجاج فيها ، ولا يدعها تختلط بغير الفضائيات من الآنسات والسيدات ، ويحثها دائما على قضاء وقت فراغها فى خدمة المجتمع وعمل الخير ، ويعلمها كيف تستغل حريتها كامرأة فاضلة صالحة لأسرتها ووطنها وأن تركز حياتها لهذا الوطن بأن تخرج له ثمرة رقى المرأة ومعرفتها وثقافتها ، وأن تظهر للعالم بأن فى يدها الصغيرة مفتاح سعادة الأسرة المصرية ودعامتها .



ويا حبذا لو أضافت وزارة الشؤون الاجتماعية يدا جديدة إلى أيديها البيضاء ، بأن تنشئ فى مدرسة الخدمة الاجتماعية قسما خاصا برقى الأسرة المصرية وتدعم البيت المصرى ، وأن تسمح فيه للمتقنين من الأزواج والزوجات بالبحث فى مسألة الأسرة المصرية والعمل على درء ما يهددها دائما من تهديم وانهار ، وليكن هذا القسم باسم (قسم الثقافة الزوجية) مثلا ، وهذا دون شك سيكون له شأن كبير فى دعم بناء الأسرة وخدمة المجتمع .

زينب محمد حسين

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى وعليه من لبس المجوس مرقع
بطرائق سود وبيض لفقت وكأنه فيه غراب أبقع